العرب
الأربعاء 2021/08/25
السنة 44 العدد 12159

لا مسطرة واحدة في البحث والإعداد للفيلم الوثائقي

كتاب يؤسس نظرية خاصة حول السينما الوثائقية العربية

كل شيء في هذه الحياة يحتاج إلى التوثيق بشكل أو بآخر، تجميد اللحظة من عمر الزمن هو أكثر من ضرورة، وهذا ما توفره الأفلام الوثائقية أيا كانت مواضيعها فهي تتناول جزءا حيويا من حياة كاملة، وبهذا وجد هذا النوع الفيلمي مداه في كونه ليس إلا امتدادا للحياة نفسها بجميع متغيراتها، لكن ماهي شروط نجاح الفيلم الوثائقي؟ وما هي سماته؟

عمان – يقدم الكاتب الأردني محمد محمود البشتاوي في كتابه "جدل التجارب" تحليلاته ورؤاه التي تتناول إنتاج الأفلام الوثائقية، عربيًا وعالميًا، عبر سبعة أبواب توقفت عند نماذج سينمائية مثلت بيئات إبداع متعددة في إطاراتها الزمانية والجغرافية والحضارية.

ووفقًا للباحث في الشؤون الثقافية والسينما تيسير مشارقة، فإن البشتاوي "يحاول التأصيل والتأسيس لنظريته الخاصة في التحليل للسينما الوثائقية"، متيحًا للقارئ أن يستخلص الرؤية النقدية والمنهج النقدي والخطوط التحليلية التي عمل عليها.

رحلة نظرية

يتوقف المؤلف بداية عند تجربة المزاوجة بين التخييل الدرامي والتسجيلي الواقعي من خلال معالجة عدد من القضايا المتصلة بـ"الوثائقي الإبداعي" والتجريب السينمائي الإبداعي في إنتاج الأفلام الوثائقية.

ويقدم في هذا السياق ثلاث تجارب فيلمية عبر معالجات نقدية لها، وهي "بعيدًا عن الوطن" لقيس الزبيدي، و"المنام" لمحمد ملص، و"تمتمات منى" لإيهاب خمايسة.

وخُصص الباب الثاني للومضة الوثائقية (الأفلام الوثائقية القصيرة جدًا)، وفيه يعاين المؤلف الحالةَ الإبداعية في الاختزال والإيجاز والتكثيف، ثم ينتقل إلى تناول سمات الومضات التسجيلية، من خلال قراءات نقدية في خمسة أعمال هي: "اغتيال جنة"، و"شق"، و"البرج"، و"بحلم"، و"الحياة المعلقة".

ويقدم المؤلف في الباب الثالث تحليلًا لفيلم "مقتل السيناتور"، مصطحبًا القارئ من مرحلة تبلور الفكرة الوثائقية مرورًا بعملية الإنتاج وصولًا إلى مرحلة العرض على الشاشة.

ويورد في هذا الباب جملة من النصائح في كيفية صياغة مشاريع الأفلام الوثائقية وكتابة الفكرة ومعالجتها، مؤكدًا بحسب المشارقة "أن لا مسطرة واحدة في البحث والإعداد للفيلم الوثائقي".

أما الباب الرابع فيمثل رحلة نظرية تؤسس لمعرفة أفضل في إنتاج الفيلم التسجيلي الوثائقي من خلال التركيز على مسائل على غرار وحدة الموضوع وتعدد الخيوط.

ويقدم البشتاوي في هذا السياق معالجة وافية للمحتوى الموضوعي والرؤية البصرية لفيلم "البدول" لمخرجه محمد سلامة. كما يركز على أهمية تدوير زوايا الرؤية وكيفية الذهاب إلى الهامش أثناء معالجة قضايا مركزية ومُلحّة في الفيلم الوثائقي، ممثلا على ذلك بفيلم "اغتيال الحريري" للمخرجة بهية نمور التي تمكّنت من إبراز الجوانب المهمشة والإنسانية المغيبة إعلاميًا.

الكاتب يضع الفيلمَ الوثائقي في بوتقة التجربة بسؤاله الذي يقدّمه في العنوان بصيغة «جدل» لإيمانه بالتنوع والتعدُّد

وينطلق البشتاوي من فكرة أن الفيلم هو "عبارة عن رحلة بحث"، وهو ما أكده في سياق معالجته لفيلم "عندما يُستهدف الصحافيون" للمخرج بشار حمدان الذي تجوّل عبر عدسة الكاميرا في الأراضي الفلسطينية المحتلة والعالم. كما يتوقف عند جماليات الصورة وبساطة السرد الوثائقي في فيلم "طبيب في الأرياف" للمخرج خيري بشارة.

ويفرد المؤلف مساحة في كتابه للفيلم التاريخي الذي يلتزم بالصورة الوثائقية، موضحًا جوانب سطوة الصورة في هذا النوع من الأفلام، ومؤكدًا أن التاريخ يمكن معايشته من خلال الصور الناطقة التي تقدمه بصيغة "سرد بصري"، وهو ما يؤسس للتاريخ المرئي أسوة بالتاريخ الشفهي والمكتوب. وتطبيقًا لهذه الرؤية، يستشهد البشتاوي بفيلمَي "وعد بلفور" و"سودان مايو".

ويحرص المؤلف على التأصيل النظري للفيلم الوثائقي الاستقصائي؛ لافتًا إلى أن هناك اشتراطات واضحة للتحرّي والتقصّي، وأنّ الإعلامي في هذا الحقل يبذل مجهودًا كبيرًا في عملية البحث وجمع المعلومات وتحليلها، والوصول إلى مصادر خاصة، وتقديم مادة تتسم بالدقة والعمق استنادًا إلى علم الفرضيات، وصولًا إلى "محاولة الكشف عن جديد يزيل الغموض عن الجهة المسؤولة عن الواقعة".

ويؤكد البشتاوي أن الطريق محفوفة بالتحديات في النوع من الأفلام، ويستعرض أساليب المعالجة الفنية والبصرية للفيلم الاستقصائي، متوقفًا عند أربعة أفلام استقصائية نقّبت في المسكوت عنه في القطاع الصحي، وهي "ابتسامة مهربة" و"سماسرة الدواء" و"تجارب دوائية خلف الأبواب الموصدة"، و"هل يصنع القتَلة الدواء"؟

في بوتقة التجربة

يقدم المؤلف في سادس أبواب الكتاب وجهة نظره في الفيلم التسجيلي العربي، ويتناول مسائل من بينها؛ الموسيقى وتوظيفها في علاقة جدلية ما بين الصورة والنغمة، و"الوثائقي الفلسطيني" وغياب أرشيف مرجعيّ، وجماليات المكان في الفيلم الوثائقي عبر ثلاثية سلطنة عُمان ضمن برنامج "كاميرا ومدينة" للمخرج عايد نبعة.

وفي سياق حديثه عن هذه الثلاثية التي عُرضت على قناة الجزيرة، يوضح البشتاوي أن نبعة انطلق في رؤيته الإخراجية مما تتميز به عُمان من "ديناميكية بصرية ساحرة"، إذ تشهد تنوعًا في الجغرافيا، والمناخ، والغطاء النباتي، الأمر الذي يمنحها جماليات من نوع خاص.

ويضيف "هذه الجماليات، يبحثُ عنها المخرج بعينه اللاقطة، والتي تُحالُ إلى المخيلة لبحثِ كيفية إنتاج المشهد بصورته النهائية"، مستعيدًا وصف نبعة للبيئة العُمانية "سلاسل الجبال، وتدرُّج الضوء، وصوت الماء المنساب في الأفلاج تحت الأرض وخارجها، يجعل منها مكانًا يمتلك المقومات السياحية المميزة، سواءً التراثية أو الطبيعية، في معظم المدن والمحافظات العُمانية".

وينقل البشتاوي ما التقطته عين نبعة من جمال عمراني في مسقط، فهي "مدينة ملتزمة بعدم بناء الأبراج الضخمة، وحافظت على البساطة، وتجد اللون الأبيض الصافي هو اللون المسيطر على المشهد، ويحيط به اللون البني المكوّن للجبال الصخرية التي تلف المدينة، مع وجود لمسات أخرى لألوان متعددة تشكل زركشات لها هويتها الخاصة".

أما الشواطئ الرملية في السلطنة، فـ"تمنح زائرها الراحة والهدوء، فالشواطئ تحيط بها سلاسل الجبال بألوانها البنية المتدرجة، بالإضافة إلى مشهد مغاير لا يمكن أن تجده في مكان آخر وهو انتشار الأزهار على الأرصفة والحدائق العامة، فمنظر الأزهار يمنح الزائر والسكان الطمأنينة ويذكرك دائمًا بالجمال، فتجد السكينة واللطف يسيطران على المكان".

ووفقًا لبشتاوي، يرتكز نبعة في معالجته الفنية للثلاثية على ما يُسمِّيه "الوثائقي الإبداعي"، أي أنه عَمِدَ إلى "إعادة إنتاج اللحظة، والتقاطها ضمن لقطة مرسومة، وحوار شبه متفق عليه، هو ليس نصًا مكتوبًا، بل على العكس؛ يعتمد على تلقائية الضيوف، لكنه يصوّر ويقطّع بطريقة الفيلم الروائي، الأمر الذي ربما يخدم النصوص التي تقال، ويضعها في حالة من الديناميكية البصرية لتصل للمشاهد، وتخدم عملية التلقّي، فيمكن القول إن هذا العمل الوثائقي جاء في سياق درامي".

ويختم البشتاوي كتابه بباب للفيلم الوثائقي الفلسطيني، مستندًا إلى مشاركات وأطروحات لعدد من المختصين في هذا المجال؛ ومن بينهم الناقد الفلسطيني الراحل بشار إبراهيم الذي كرّس حياته لتوثيق السينما الفلسطينية، وروان الضامن التي تحدثت عن تجربتها في إنتاج الأفلام الوثائقية، وإيهاب خمايسة الذي أكد أن "الوثائقي الفلسطيني" ليس مجرد بيان سياسي، وتيسير المشارقة الذي تناول الجيل الجديد في السينما الوثائقية الفلسطيني. كما يشتمل الباب على دراسة للبشتاوي عن تجربة المصوّر الراحل هاني جوهرية.

من جهته، قال الناقد حسين نشوان في كلمة له على الغلاف الأخير للكتاب الصادر عن "الآن ناشرون وموزعون"، إن البشتاوي "يضع الفيلمَ الوثائقي في بوتقة التجربة بسؤاله الذي يقدّمه في العنوان بصيغة (جدل)؛ لإيمانه بالتنوع والتعدُّد وحدود المغامرة التي يلامسها الفيلم الوثائقي تاريخيًا".

وشملت الأفلام التي تناولها الكتاب بالتحليل 27 فيلمًا، منها خمسة أفلام لمخرجين عالميين من أمثال مايكل مور والأخوين لوماير وراشيل دريتزين وفيل بيرتسن وجيمس لونغلي وسانتياغو ألفاريس، إضافة إلى 22 فيلمًا عربيًا بدءًا من فيلم "بعيدًا عن الوطن" الذي أُنتج عام 1969 للمخرج قيس الزبيدي، وصولًا إلى أعمال تنتمي إلى الألفية الجديدة من دول عربية عديدة، من بينها عُمان والأردن ولبنان ومصر والسودان.

سرد بصري وتاريخ مرئي

شيوخ الحلقة يحكون تاريخ ساحة جامع الفنا

مراكش (المغرب) – شكلت ساحة جامع الفنا بمراكش على الدوام الوجهة الأكثر جاذبية للسياح الأجانب والمغاربة القادمين للمدينة الحمراء، حيث تمثل أحد الفضاءات ذات الطابع الثقافي والسياحي التي يقف من خلالها الزوار على العديد من التقاليد الشعبية التي تزخر بها الثقافة المغربية (الحكواتيون والمجموعات الموسيقية والألعاب البهلوانية وغيرها من الفرق الشعبية المنتشرة داخل هذه الساحة).

تعيش "ساحة جامع الفنا" بمدينة مراكش المغربية ومنذ مئات السنين على وقع زمنها الخاص، صاخبة بأهازيج روادها من الفنانين الفلكلوريين، وغاصة بزوارها المتحلقين حول رواة الأحاجي ومروضي الأفاعي وأصحاب ألعاب الخفة الذين صنعوا منها ساحة فرجة ورواية للتاريخ.

وفي إطلالة على أحد أهم العناصر الثقافية للساحة ألا وهو فن الحلقة، صدر مؤخرا عن المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، مؤلف جديد يحمل عنوان "ساحة جامع الفنا تتحدث عن نفسها"، للكاتب والإعلامي عبدالواحد الطالبي، والذي يسرد فيه سيرة رواد الحلقة وصناع الفرجة بالساحة.

ويصف مؤرخون مغاربة "الحَلقات الشعبية"، في "ساحة جامع الفنا"، بأنها "أكبر خشبة مسرح استعراضي عمومية في المغرب"، حيث يصوغ الممثلون حكاياتهم بطريقة عفوية، ويجسّدونها بشكل هزلي، ويقبل عليها الجمهور بتلقائية، فـ"الحلاّيْقي" (نسبة إلى الحلقة)، ينقل زوار حلقته إلى زمن القصة الخاص لينتهي الاستعراض، إن نال إعجاب الجمهور، بإلقاء قطع نقدية تشجيعًا لصاحب الحلقة ومكافأة له على عرضه. ولا يقتصر انتشار فن الحلقة على "ساحة جامع الفنا" بمدينة مراكش، بل إن ساحات تاريخية بمدن مغربية عريقة كانت مسرحًا لهذا الفن العفوي.

ويتضمن الكتاب الجديد، الذي يقع في 280 صفحة من الحجم المتوسط، 28 حوارا مع شيوخ الحلقة والمهتمين بتراث ساحة جامع الفنا، حيث يستعرض سير حياة "الحلايقية"، وتاريخ الساحة منذ أربعينات القرن الماضي، معززة بصور توثيقية، إضافة إلى تصدير وتقديم ثم ملحق.

وفي تقديمه للكتاب، أوضح عبدالواحد الطالبي أن هذه "الأضمومة الإعلامية سباقة لنشر سيرة حياة أعمدة الساحة ورواد الحلقة بألسنتهم وتقديم ساحة جامع الفنا في واقعها كما لا يمكن تزييفه في أي صورة".

ويعتبر الطالبي هؤلاء الفنانين قد ساهموا بشكل كبير من خلال تنقلاتهم وما يقدمونه من فن شعبي في نقل الأخبار وأنباء الوقائع، والحوادث السياسية والاجتماعية، بين المناطق البعيدة، وكان البعض منهم يختار رواية السيرة النبوية، وبعض القصص المستقاة من أمهات الكتب، فيستعيض حينها عن دوره الترفيهي، ليصير معلما يلقن جمهوره، ومريديه المعرفة والحكمة.

ولفضاء ساحة جامع الفنا رمزية ومكانة كبرى في الثقافة المغربية وحتى العالمية، فقد ألهمت الساحة بفنونها وعروضها العديد من الكتاب العالميين الكبار أمثال خوان غويتيسولو، كما شكل هذا التراث اللامادي الإنساني المغربي مصدر إلهام للعديد من الشعراء والفنانين المسرحيين والموسيقيين كما صنفته اليونسكو كتراث شفوي للإنسانية.

وتبقى الحلقة من أبرز فنون الساحة بما تقدمه من سرد محكي شعري مشبع بالخيال، وأداء فني يكتمل فيه أداء الجسد مع نبرة وإيقاع الصوت وفنون المسرح مع تتبّع لنبرة الحروف في جذب للإنصات. هذا ما علمته ساحة جامع الفنا لفنانيها، من الشرقاوي مول الحمام إلى عبدالرحيم الأزلية وباريز وآخرين.

وأضاف أن الكتاب، الذي سيكون رهن إشارة المهتمين بتراث ساحة جامع الفنا والباحثين في تاريخ شيوخ حلقاتها وسير روادها، يضم بين طياته الكثير من الوقائع التي تصلح أرضية ومنطلقا لبحث يغني خزانة التوثيق للتراث الشفهي الوطني.

وذكر، من جهة أخرى، أن إصدار هذا الكتاب يتزامن مع ظروف جائحة كوفيد – 19 وما فرضته من حجر صحي، منع ساحة جامع الفنا من روادها وجمهورها، و"جعل بنيانها يتداعى بلا أعمدتها الذين هم شيوخ الحلقة، ومنع الحلايقية من مورد رزقهم".

وبعد أكثر من سنة من الركود والتي أصبحت معها الساحة تعيش فراغا وهدوءا أفقداها ابتسامتها وجماليتها وحركيتها الفنية الدائبة، بدأت الحركة الطبيعية تدب اليوم داخل ساحة جامع الفناء لتعود بشكل تدريجي إلى مختلف المناحي الاقتصادية والسياحية والثقافية بها وتنعش الروح في فضائها، بعد الإجراءات التي اتخذتها الحكومة مؤخرا بتخفيف القيود المرتبطة بجائحة كورونا نتيجة تحسن الوضع الوبائي في البلاد.

وخلص مؤلف الكتاب إلى أن "الحوارات وردت في صيغة غير مباشرة بأسلوب سردي حكائي اختار فيه السارد الرؤية من خلف لتتمكن ساحة جامع الفنا من تقديم نفسها بنفسها في الصورة التي سيراها القارئ، مثلما لم يراها من قبل".

فن عفوي عريق